صندوق النذور

أقصوصة مصرية

بقلم الاستاذ دريني خشبة

كان مقام العارف بالله رضى الله عنه وأرضاه هادئاً ساكناً فيه روعة وفيه جلال وفيه خشوع. وكانت القبة السامقة الشاهقة تعكس فوقه أخيلة رفافة يزيدها البلور الملون، والقاشانى العجيب، وألواح الرخام والمرمر والبسلنط، وقاراً فوق وقار، وجلالةً فوق جلالة، ونوراً دنيوياً فوق ما يفيض عليها من نور الآخرة، وسناء التقوى، ولألاء المثوبة ووضاءة الرضى ...

وكان أرج المسك يعبق فى أرجائها، وريحان التقى يملأ بشذاه أجواءها، وكانت شبابيك الضريح النحاسى تلمع وتزهى وتبتسم، والثريات من فوقها تتألق وإن لم تكن مضاءة، وبيض النعام المعلق فوق الضريح يروح مرة ويجىء مرة، وما هزته ريح، ولا حركته ... وكانت السفينة المعلقة بين بيض النعام تهتز قليلاً فتكون كأنها فوق موج رفيق بها حدب عليها يهدهدها فى أمن ودعة إلى بر السلام.

أما الضريح فكان مكسوا بغطاء أخضر زيتونى نقشت عليه آيات من القرآن الكريم خيطت فيه بخيوط من حرير وعملت بصنعة دقيقة باهرة برزت فيها سلوك الذهب والفضة نجمات تتألق وتعكس بريقاً هادئاً خفيفاً.

وكانت العمامة الكبيرة البارزة الملتفة بالكشمير الثمين تلقى فى القلوب رهبة، وكانت عينا محمد أفندى عبد الغفور لا تريمان عنها. لكنه كان يبتسم أو يخفى ابتسامة خبيثة ضايقت صديقه الشيخ على عبد الواحد الجالس إلى جانبه يتمتم بأدعية خافتة وصلوات طيبات.

وكان اليوم يوم جمعة، وكان الوقت ضحى، وكان زائرو المقام الكريم قد أخذوا يقبلون أفراداً أفراداً، أو أزواجاً أزواجاً، أو جماعات جماعات، لكن الزحام كان نادراً وخفيفاً على كل حال، لأنه لا يكون على أشده إلا بعد أداء صلاة الجمعة حين يقبل الناس متزاحمين متدافعين لنيل البركات والتماس النفحات

وأقبلت فتاة ناهد ذات جمال وذات رواء تثب كالحمامة فوق السجاد السعيد، فجعلت تطوف بالضريح سبعاً وكلما أتمت مرة وقفت عند صندوق النذور فدست فيه قطعة كبيرة من النقد كان يسمع رنينها فى الداخل حين تدفع أخواتها فى الصندوق لتحتل مكانها بينها ... فلما أتمت الفتاة طوافها وقفت عند رأس الشيخ الذى تحسبه قاراً تحت العمامة الكبيرة الخضراء، ثم راحت تتمتم وتهمهم، ثم تسر وتغمغم، ثم وقفت لحظة ساكتة صامتة، ثم انحدرت من عينيها دمعة ترقرقت فوق خديها الجميلين الأسيلين، وشهقت شهقة عميقة حارة ثم انصرفت ذاهلة أو كالذاهلة ...

وقد ذعر قلب محمد أفندى عبد الغفور عند ما لمح

الفتاة، وعند ماشهدها تخطر ريانة فينانة بارعة المحاسن جمة المفاتن، فلما تنبه إليه صديقه على، وهو يوشك أن يلتهم الفتاة بعينيه الجائعتين اعتدل فى جلسته، وترك أدعيته وصلواته وقال له، ثم قال محمد له :

— إتق الله يا محمد فأنت هنا فى حَرَم حرام ومكان مقدس ... غض من طرفك يا صديق وانظر أمامك !

— أنظر أمامى لأرى ماذا ؟

— لترى هذا الضريح يكاد ينشق فيلتهمك !

— يا حفيظ ! وكيف ينشق يا أخانا الشيخ على؟

— لقد رأيته يتحرك تأففاً من فعلك !

— يتحرك تأففاً من فعلى ؟ وماذا فعلت ؟

— لقد كنت تهيم ببصرك فى إثر الفتاة !

— وكيف لا أفعل وقدماها جميلتان ناصعتان كأنهما خلقتا من مرمر يتدفق فيه دم ؟

— ما هذا الكلام يا أخى ؟ إتق الله يا شيخ ... أنت هنا فى مكان طاهر له حرمته وله قداسته !

— لكن الجمال الذى زار هذا المكان الآن أفتك بالنفس وبالقلب وأشد تأثيراً فيهما من قدسية هذا المكان !

— استحى ياشيخ ! تأدب فى حديثك هنا !

— هذه لهجة شديدة يا شيخ على فهذب حديثك قليلاً !

— أقسم لك لقد شهدت الضريح يتحرك تبرماً بك !

— الضريح يتحرك ؟

— أجل ... ولا شك فى أنك قد رأيته !

— وكيف يتحرك الضريح، ولماذا ؟

— ماذا أقول لك وأنت رجل رقيق العقيدة ضعيف الإيمان !

— ولماذا كنت عندك رقيق العقيدة يا شيخ علىّ ؟

— لأنك تنكر ما وقع أمامك الآن من كرامة هذا الشيخ المبارك !

— أية كرامة يا صديق ؟

— اهتزاز الضريح من السخط عليك والضيق بك ؟

— أنا لم أر الضريح يهتز ... إنك واهم ... لقد تركت الخيال يستولى على نفسك والوهم يغشى ناظريك

— اتق الله يا شيخ ... أسكت ... أسكت واتق الله !

— أنا أشد لله تقوى منك ... ما هذا الذى تقول ؟

— بل إبليس أشد لله تقوى منك ياعزيزى ... إنه لو رأى الفتاة التى خلبتك لما حاول أن يأكلها مثلك !

— وأنت ؟ ألم تَصبُ إليها عَمَرك الله ؟

— إخسأ ... إننى أعرف منك بقداسة هذا المقام الكريم ... أنظر !

— أنظر ماذا ياشيخ على ؟

— بيض النمام !

— ماله ؟

— إنه يهتز !

— وما ذاك ياعم ؟

— هذه علامة سخط الشيخ !
— أى شيخ ؟
— سيدى شمس الدين ... سيد العارفين بالله !
— سيدنا شمس الدين ساخط ؟
— إنه ساخط لا شك !
— وفيم يتسخط أو لا يتسخط ؟
— ساخط عليك
— وماذا بينه وبين بيض النعام ؟
— بينهما سر !
— بينهما سر ؟ ماذا تقول ؟
— أجل . . .
— وكيف ؟
— نعلم أنه إذا غضب غضباً هيناً اهتز البيض ، فإذا غضب أكثر اهتزت هذه الثريات ، فإذا اشتد غضبه اهتز الضريح ، فإذا حنق وامتلأ غيظاً رأيت هذه السفينة تهتز وتعلو وتهبط وتروح جيئة وذهاباً كأنها فوق سطح اليم المضطرب !
— يا حفيظ !
— هل تسخر ؟
— كلا . . . لست أسخر
— بل أنت رجل لاعقيدة لك ولاأدب عندك !
— عود إلى العقيدة والأدب ...
— أنصحك يا محمد أفندى !
— وبم تنصحنى ؟
— قم فتوضأ وصل ركعتين لله عسى أن يغفر لك الشيخ ؟
— وهل يملك الشيخ أن يغفر أولا يغفر ؟
— يا شيخ ! إتق الله يا مسلم !
— من منا يجب أن يتقى الله ؟ أنا ؟ أم أنت ؟
— بل أنا !.. عجيب والله !.. بل أنا يا سيد محمد فلا تحزن ! . . أنا لأننى لا أستحيى من النظر إلى ما حرم الله وأفعل هذا المنكر فى مقام سيد العارفين بالله ...!
— على كل حال أنا لم أكفر بالله مثلك !
— إخسأ قاتلك الله . . . أنا أكفر بالله ! لا بارك الله فيك !
— وكيف تنكر ذلك وقد جعلت لله شركاء ؟
— أنا ! غفرانك اللهم !
— أجل أنت ! ألم تقل إنه يجب أن أتوضأ وأصلى عسى أن يغفر لى هـذا الشيخ الذى اتخذتم ضريحه وثناً ؟
— نحن اتخذنا ضريح العارف بالله وثناً ؟
— أجل ...
— نحن ؟ المسلمين المصلين !
— أجل . . . إنكم اتخذتم منه ما هو شر من الوثن !
— ماذا تقول يا محمد ؟ وهنا تقول هذا الكلام؟
— أقوله هنا لأنه منكر ؟
— قاتلكم الله يا شباب ! مقام سيدى شمس الدين منكر ؟ أى كفر هذا ؟
— يا لهذه العمامة ويا لهذا الكشمير ! ! ماذا يكون الوثن إن لم يكن هذا الضريح وثناً ؟!
— ثم ماذا أيضاً ؟ !
— ثم هـذا البيض المعلق الذى يفيض على

عقولكم شعبذات ، ماذا هو ؟ !

— ألا تقصر يا محمد افندى ؟

— حدثنى عن تلك السفينة ؟ أسفينة نوح هى ؟!

— أأنت أعقل من الدولة إذن ، وأهدى ممن وضع هذه الآثار ؟ !

— الدولة لم تملق هذه الآفات ، وليس من وضعها ممن هدى الله !

— أليست الدولة هى التى شيدت هذا المقام الشاهق ؟

— بلى ، لقد شيدته الدولة التى كانت تفكر كتفكيركم !

— واليوم؟ أليست الدولة هى التى تتولى صيانته؟

— كل هذا منكر سيبدله الله !

— ولماذا تبقى عليه الدولة ما دام منكراً ؟ !

— تبقيه لأنها تخشى الرعاع ، ولن نكون بخير حتى يأتينا الله بدولة تهدينا السبيل ولا تخشى فى محاربة الأوثان لومة لائم !

— السلام عليك إذن ... هداك الله أيها الأخ . إن كلامك شىء لا يطاق ... مسكين ! ... أى بلاء سيحل بك ... اليوم أو غداً ... ومن يدرى ؟ فلعله يحل بك الساعة ... قاتل الله المدنية وقاتل الله شباب العصر !

***

ونهض الشيخ على وحمل معه خُفَّيْه ، ثم ذهب إلى ناحية أخرى قَصِيّة فى المقام واستقبل القبلة وكبر ، ثم راح يصلى لله ركعات يمحو بها الرجس الأثيم الذى علق بأذنيه من حديث محمد افندى عبد الغفور

وأراد محمد افندى أن يتخذ من هذا الأمر دعابة فنهض ويمم شطر الشيخ على ، ولما وجده يصلى تبسم ثم قال له : « عجبت لكم كيف تتخذون من مقابر موتاكم مساجد وقد نهاكم النبى صلى الله عليه وسلم عن ذلك ... أليس هذا منكراً ؟! ... »

وسمع الشيخ هذا الكلام ولكنه كبر تكبيرة ثم ركع ، ثم قام ، ثم أهوى إلى الأرض ، ثم ظل ساجداً سجوداً طويلاً خاشعاً

ثم تلفت محمد أفندى فلمح الفتاة ... بعينها ... الفتاة الجميلة الأسوانة جالسة فى رهط من أترابها فى الركن الغربى من أركان المقام ، فآثر أن يجلس حيث هو ليطالع القمر السافر الذى يحيل مقبرة العارف بالله جنة وارفة من جنان الحب ... لكنه ما كاد يفعل حتى رأى شيخ المسجد يقف حياله ، ويتفرس فيه ، ثم يمد يده فيقبض على ذراعه ، ويدعوه إلى خلوة معه ... وما كاد يستقر بهما المقام فى خلوة الشيخ حتى يدوى المؤذن بأذان الظهر ، فتتردد فى جنبات المسجد الكلمتان العظيمتان اللتان فتح الله بهما للاسلام فتحه المبين « الله أكبر ... الله أكبر ... »

وتنتهى الصلاة ...

ويلتفتُ الشيخ إلى محمد أفندى ويطلب إليه ألا ينصرف لأنه سيريه من آيات العارف بالله عجبا ...

ثم يقصد وإياه إلى مقام شمس الدين ، فما يبلغانه إلا بعد جهد وبعد طول عناء ، لأن الزحام يبلغ أشده عقب الصلاة حينما يتدافع الناس نحو الضريح ليطوفوا به ، وليلتمسوا من بركات الولى الكريم ، ولتشملهم نفحاته ...

ودخل الشيخ ... ووقف محمد أفندى عبدالغفور إلى جانبه ... وجعل رئيس المسجد يتمتم بصلوات ودعوات ، وجعل الناس يتدافعون نحو صندوق النذور يدسون فيه قروشهم .

وكانت سيدة وقور تجلس عندالصندوق، فما راع الناس إلا أن تقف فجأةً وتأخذ مقصاً صغيراً ثم تتناول غدائرها الذهبية فتقطع كل (محمودية) وتدسها فى ثقب الصندوق وتصنع هذا سبع مرات ثم تجلس قليلاً ، ثم تعود فتقف وتعمل المقص فى غدائرها ... فعلت ذلك سبع مرات ، ورئيس المسجد واقف يتمتم ويُعَوِّذ، ثم يُسَبحل ويحوقل، وهو بين هذا وذاك يتفصّد جبينه بالعرق فيدع حبّاته تترقرق فوق وجهه المشرق المنير ...

ثم يتدافع الناس فجأةً فيفسحون طريقاً لرجل فقير أشعث الشعر خلق الثياب عارى القدمين نابى الهيئة ، قد علق فى ذراعيه حلقاً ثقيلاً من حديد ، وجعل فى رجليه سلاسل وأغلالا ، وأغرب من كل ذلك وأعجب جمله فى شفتيه قُفْلاً ثقيلاً من فولاذ ، وفى يمناه سيفاً مفلولاً من خشب له غمد زَرِى كئيب ...

وقف هذا الفقير حيال ضريح الولى ، ثم أخرج مفتاحاً فدسه فى القفل المتدلى من شفتيه ، ولَوَاه فانفتح ، وسلك اللسان الطويل من ثقبين كبيرين فى شفتيه ، وراح يصلى صلاة خافتة أول الأمر ، ثم جعل يغمغم مرة ويهمهم أخرى ، ثم راح يعصف بصوته ويقصف ، ويجلجل كالرعد ، ويقول :

يا سيدى يا شمس الدين ... مَدَدْ

يا سيد العارفين بالله ... مَدَدْ

مددْ ، مددْ يا نور العين ، مددْ

يا أبا الكرامات يا ولى الله مددْ !

يا سارى فى الليل مدد ، مدد !

يا كاشف أسرار الناس ، مدد !

خذ بيدى يا شمس الدين ، مدد !

هز الهلال يا زين ، مدد !

أنت المقصود يا زين ، مدد !

مدد ... مدد ... مدد ...

فى القلب شجون ، وشجونه فنون ... مدد !

حبك يضنيه ، وهواك دواه ... مدد !

عرش الرحمن ، لك فيه إيوان ، مدد !

... الخ

وكان الرجل ينشد هذه الهتافات فى صوت متهدج ، وفى لساننا الدارج ، ثم يزنها وزناً سليماً مستقيماً مع أنها ليست شعراً

ووجم الناس ... ووقفوا لا ينبس أحد منهم بكلمة ... ووقف السيد محمد عبد الغفور مسبوهاً مشدوهاً ... فقد خلبه ذلك الإخلاص الحلو الذى كان يتدفق من فم الرجل فيحل بَرْداً فى قلوب الناس ، ويستولى على مشاعرهم ... فلما قال الرجل :

— الشك حرام ... مددْ ... مددْ !

— عبد الغفور ... اسمه محمد ... مددْ مددْ !

— يا رب اهديهْ ... مددْ مددْ !

— يا شمس الدين .. إشفيه إشفيه .. مددْ مددْ !

شعر محمد أفندى بفيض من الشعور العجيب يسرى بارداً فى دمه ، وأحس كأنما الأرض تسوخ

تحت قدميه ... وخيل له أن القبة ترقص مع الرجل وتهبط وتعلو وتروح ذات اليمين وذات الشمال . . ثم نظر إلى الناس فوجدهم جميعاً يرقصون على نغمات الشيخ ، ويغمغمون بهتافاته

ثم هلل رئيس المسجد فجأة وكبر ... فسكت الرجل الفقير وصمت الناس ، ووقف الهواء وأمسك الحاضرون أنفاسهم ... ورفع الرئيس يديه نحو العمامة الكبيرة المذكورة ، فاهتز بيض النعام ورجفت الثريات ، وتأرجحت السفينة يمنة ويسرة ، ثم مضت لحظات على هذا الحال ... ثم اشتد الصمت وظل الناس مأخوذين بروعة المشهد العجيب ... لكنهم هللوا فى صوت واحد وكبروا ، حينما لمحوا العمامة الكبيرة الهائلة تهتز وتتحرك ، ثم يتحرك الضريح كله حركة هينة لينة لكنها ملحوظة لأنها حدثت مرتين أو ثلاثاً ... ثم خرجت أصوات جميلة من داخل الضريح تقول :

« الله ... الله ... لا إله إلا الله ! »

فما كادوا يسمعونها حتى تدافعوا بالجنوب والمناكب نحو صندوق النذور . . . وكان عجيباً أن يسبقهم الرجل الفقير فينثر فوقه كثيراً من الريالات المصرية الكبيرة كان الخادم يجمعها ثم يقذف بها فى الصندوق كما يقذف القروش والملاليم والبرائز وأنصاف البرائز وأخماسها ... وحاولت السيدة التى كانت تقطع الذهب من غدائرها أن تدس فى الصندوق إحد (محمودياتها) ، لكن الخادم (رجاها) أن تستأنى حتى يفرغ الزوار ، ومع ذلك فقد استطاعت أن تدس (محموديتين) ، وكانت فرحة يطفح البشر من وجناتها وهى تصنع ذلك ...

* * *

وخلا المقام من الزائرين إلا قليلاً .

ثم شعر محمد أفندى بيد تقبض على ذراعه من خلف ، وسمع صوتاً يقول :

— ألا تستغفر يا محمد أفندى !

والتفت محمد أفندى فبصر بالشيخ على عبدالواحد فدار الحديث بينهما ، واشترك فيه رئيس المسجد :

— أستغفر الله يا شيخ على !

— ألا تلتمس الصفح من سيدى شمس الدين ؟

— بلى ... ألتمس منه الصفح بعد أن شهدت بعينى وسمعت بأذنى !

ثم قال رئيس المسجد :

— حقاً ! لقد أتلفت المدنية قلوب شبابنا ، وأضعفت ثقتهم بأولياء الله ... ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ...

فقال محمد أفندى وهو يستعبر :

— أجل ... لكننا معذورون ... فتالله إن هذا أول يوم أرى فيهم كرامة لولى ، وتالله لأكونن خادماً بعد اليوم لسيدى شمس الدين ... وتالله لأحملن إلى مقامه تحفاً وآيات من الآيات ...

ودعا له الشيخ الفقير ، ثم أخذ قفله فجعله فى شفتيه ، وذهب يجلجل بسلاسله ، ويضرب فى الهواء بسيفه الخشبى :

ونظر محمد أفندى فى الركن المبارك حيث جلست الفتاة فى رهط من أهلها ، وكان فيهم رجل شيخ كبير ، فاستأذن رئيس المسجد فى أن يمضى معه إلى الرجل ، فلما لقياه سأله محمد أفندي إذا كان هو

والد الفتاة . فقال الرجل : « نعم يا بك ! » . فقال له محمد أفندي : « وابنتك هذه متزوجة ؟ » . فقال الشيخ : « كلا يا بك ... سهّل الله لها » . فقال له محمد أفندي : « فهل تزوجني إياها وأنا لها كفء، وهؤلاء شهودي ؟ » . فقال الرجل : « أنظرني أياماً يا بني ! » .

فقال محمد : « وأرجو أن أنال القبول إن شاء الله » فقال الرجل : « القبول إن شاء الله »

ثم عرّف نفسه إلى الشيخ وعرّفه ، وقرأ الجميع الفاتحة ...

* * *

وما كاد يخطو محمد وصيد الضريح حتى سمع خادماً خبيثاً من خدم المسجد يقهقه ويقول لصاحبه : هل رأيت ؟ أنا أم أنت ؟ ... لقد دخلت الضريح هذه الجمعة فملأت الصندوق وهديت الضال وزوّجت فتاة ... فماذا صنعت أنت الجمعة السالفة ؟ »

فقال له صاحبه : « حقاً إنك لشيطان ! ... لكن الذي ساعدك هذه المرة هو الشيخ أبو السلاسل ! » فقال الأول : « لقد لقّنه الرئيس دوره فأداه على خير وجه ... لشد ما كنت أفزع أن يضيع أحد الريالات ! »

ولم يكن الخادمان يريان محمد افندي وهما يتناجيان هكذا ... فلما ربت على كتف أحدهما وأبصرا به ... فزعا فزعاً هو أقرب إلى الخجل والحياء

لكن محمد افندي عبد الغفور كان أشد استحياء على كل حال ... ومع ذلك فقد تزوج الفتاة ، لأنها وقعت من قلبه موقعاً عظيما ...

دريني خشبة

صدر كتاب

قافلة الأيام

مجموعة من القصص المصري الحديث

تأليف

عبد اللطيف راكد

يباع بخمسة قروش بجميع المكتبات بالعالم العربي وبمكتبة النهضة المصرية

آلام فرتر

للشاعر الفيلسوف جوته الألماني

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

وهي قصة عالمية تعد بحق من آثار الفن الخالد

تطلب من إدارة مجلة الرسالة

وثمنها ١٥ قرشاً